المحاضرة10: الحس المأساوي في النص الشعري المعاصر

تمهيد:

انقضت النكبة الفلسطينية على عالم عربي لم يكن قد اكتشف نفسه بعد، ولا تعرف على أبعاد فجيعته الحقيقية فكان أول إنجاز بعد النكبة هو تحرير العقول والنفوس من الجهل بالذات، وكان الشاعر العربي من جيل الشباب أول من أدرك بحدسه وعمق وجدانه أبعاد المأساة العربية، ولهذا تعد فترة الأربعينات مؤشرا سيميائيا هاما في الشعر العربي لأنها كشفت عن تراجع واضح للشعر العربي القديم بعدما وصل إلى حالة من الانسداد والتوتر والقلق طال الشكل والمضمون معا.

لم يكن الشعر السابق للنكبة بريئا من القلق وصراع القيم، غير أنه بعدها دخل في صراع حاد مع نفسه ومع القيم الإنسانية حوله أعنف بكثير من أي صراع سابق، ووصل فيه الشاعر إلى درجة عظيمة من الإقدام والمغامرة وحتى يتحقق له ذلك لابد أن يكون أكثر من مجدد لنفسه وللفن، وأن يتحدث لصالح أمته ولبلاده ولصالح الأجيال الصاعدة وأن يهز مفاهيم العالم من حوله، ويتنبأ له بما غاب عنه.

فكانت هذه الفترة فترة إنكار ورفض على كل صعيد، خاصة وأن جراح الأمم الكبيرة قد بدأت بالاندمال فكانت حقبة تحول جديدة تعلن عن نفسها، وبدأ الإحساس بعبء التعبير عن الحس المأساوي الذي يعاتبه الضمير العربي الجمعي يهيمن على النص الشعري العربي المعاصر، ويحتل موقعا كبيرا منه، ويبدو جليا في كثير من قصائد الشعراء على اختلاف توجهاتهم وأدواتهم الفنية.

أولا - أسباب الظاهرة.

إن قسما كبيرا من إحساس الشاعر المعاصر بالأسى والحزن والاغتراب واليأس من الواقع الاجتماعي يرجع إلى الوضع الذي عاشه العالم العربي بعد الهزائم وسقوط فلسطين، وتصادم هذا الوضع مع الحال الراهن للشاعر العربي والمبدع عامة، وهناك أسباب كثيرة أدت إلى انتشار هذه الظاهرة، أهمها:

1- التأثر بأعمال بعض الشعراء الغربيين من أمثال توماس إليوت، ولاسيما قصيدته الشهيرة "الأرض الخراب".

2- التأثر ببعض أعمال الروائيين والمسرحيين الوجوديين كالبير كاموا، وجان بول سارتر، وكذلك النقاد أمثال: كولن ولسين الذين ترجمت أعمالهم إلى العربية، وشاع انتشار ها في أوساط الشباب موجة من القلق والسأم والضجر.

3- عامل المعرفة، والمعرفة ما نعلم هي زاد الشاعر الحديث وسلاحه، غير أنها كثيرا ما تتحول على لسانه إلى أسئلة، ترهق الروح، وتمزق سكينة النفس، وتقود الذات إلى اتخاذ مواقف صارمة من نفسها ومن المجتمع ومن الكون.[i] ومن المؤكد أم مثل هذا المناخ يخنق الإبداع، ويجعل المبدع مغتربا، عندما تصطدم أفكاره المثالية مع صلابة

الواقع، لتنقلب أسى وحسرة وضياعا وكآبة وتمزقا في أشعارهم، التي تحولت إلى رفض وتمرد لكل شيء في الواقع العربي.

ثانيا- نماذج عن الحس المأساوي.

من الثابت أن أثر الشعر الغربي الحديث كان كبيرا على الشعر العربي الحديث ،وأن هذه النزعة المأساوية في شعرنا المعاصر، ليست إلا نوعا من التأثر بأحزان الشاعر الأوروبي الحديث الذي عاين طغيان الحضارة المادية على الروح بخاصة في القرن العشرين، ولكن من الخطأ الظن بأن التأثير الغربي وحده كان السبب في شيوع ظاهرة الحزن والاهتمام بقضية الألم والأسى في شعرنا الحديث، لأن هذه القضية تكاد تكون هاجس الإنسان بشكل عام والإنسان المبدع بشكل خاص.

ولقد اتسع مجال رؤية الشاعر المعاصر واكتسب نوعا من الشمول، فلم تعد أشكال الحياة أمامه ألوانا مختلفة يستقل بعضها عن بعض، وإنما تتمازج فيها الألوان لكي تصنع الصورة العامة، ومن ثم لم يعد يرى الجانب المشرق وحده أو الجانب القاتم وحده، وإنما يرى الجانبين ممتزجين[ii]، للخلاص من وطأة الزمن الأسود والمجتمع المتردي في نظره، كما نقرأ ذلك في قول بدر الشاكر السياب:[iii]

جيكور ماذا
أنمشي نحن في الزمن؟
أم أنه الماشي؟
ونحن فيه وقوف
أين أوله
وأين آخره،
هل مر أطوله
أم مر أقصره الممتد في الشجن.

إن الزمان عند الشاعر لا طبيعة له في هذا الكون، ولا قانون يحكمه، وهي الحقيقة التي تجلت بوضوح من مجموع الاستفهامات المتوالية التي طرحها الشاعر أنمشي، ماذا، أم أنه الماشي، أين أوله...، مما جعله يرسم هذا الزمن في صور مثقلة بالمرارة والظلمة والإحساس بالعبث، ويتقاطع معه صلاح عبد الصبور في هذا الإحساس، وذلك حين يقول[iv]:

هل تدري في أي الأيام نعيش
هذا اليوم الموبوء هو اليوم الثامن
من أيام الأسبوع الخامس، في الشهر الثالث عشر

ففي هذا الكون الموبوء، لا يعرف «الشاعر أين تنتهي ذاته، وأين يبدأ الكون، أين ينتهي الحب، وأين تبدأ الكراهية، الشيء الوحيد الذي يعرفه حق المعرفة، هو رغبته في أن يتغير كل شيء، وأن يأخذ الوجود صيغة جديدة.»[v].

وبهذا يشيع الحس المأساوي والحزن في النص الشعري العربي المعاصر، فتبدو مشاعر الشعراء مستلبة للروح الإنسانية، وطاقة ملهمة لا تستنفر إلا من النقص الكامن في الحياة الإنسانية، وذلك «بوصفه شعورا استلابيا ينزع من الإنسان أمته، وسكينته، ونشاطه الفاعل»[vi]، ولكنه ملهم ومثير للإبداع في الوقت نفسه، وكأنه لازمة شعرية يقول أمل دنقل:[vii]

الطيور معلقة في السموات
ما بين أنسجة العنكبوت الفضائي للريح
مر شوقة في امتداد السهام المضيئة
للشمس،
(رفرف...
فليس أمامك-
والبشر المستبيحون والمستباحون: صاحون-
ليس أمامك غير الفرار...
الفرار الذي يتجدد كل صباح!).

إن كل شيء يحدث، إنما يحدث خارج الزمن، خارج الإطار العقلي، وعبثا يحاول العقل إخضاعه لقياس أورده النظام، فالزمن هارب في هذا المقطع الشعري حيث يعيش الطائر (الشاعر) بين محوري السماء والأرض، وفي هذا المفترق الحرج «يتوحد الشاعر مع أشياء الكون، وينطق باسمها، بعد أن ينتقيها برية كالطيور»[viii]، باحثا عن المعادل الموضوعي الذي ينسيه آلامه ويجدد آماله كل صباح.

ودواعي الأسى لدى الشاعر المعاصر متعددة لا تنحصر في تغير الزمن ولا منطقيته وإنما تعود إلى طبيعة الإنسان ذاته وإلى هموم الواقع المعاصر ومشكلاته، فحين «وقع العراق فريسة لسياسة القهر والتآمر تتناثر فيه أشلاء الأحياء وتبدو رؤية العالم من خلال منظور الدم الذي يغطي سطح المدينة، وتتراءى القبور التي تزخر بالأحياء»،[ix] كتب بدر شاكر السياب قصيدته "الموس العمياء" يقول في أحد مقاطعها:[x]

الليل يطبق مرة أخرى فتشربه المدينه
والعابرون إلى القار مثل أغنية حزينه
وتفتحت كأزاهر الدفلى مصابيح الطريق
كعيون ميدوزا تفجر كل قلب بالضغينه
وكأنها نذر تبشر أهل بابل بالحريق.

مقدمة ترسم أجواء أسطورية من الحزن والبؤس في مدينة بغداد التي تحول فيها كل شيء إلى شقاء، يبشر بالدمار وبالحريق الذي سيعم أهلها جراء الواقع السياسي، وينبئ بالانهيار والتهدم والسقوط.

ونعاين الحزن والاغتراب أيضا في أشعار عبد الوهاب البياتي، وذلك حين يصور التوتر الدرامي بين اندفاع آماله في الوصول إلى مدينته نيسابور، وبين ما وجد فيها من متسولين وظلم من الحكام، فيطوف البلاد بحثا عن المثال، ليصطدم بالدم يسيل في كل مكان من العالم، فيقول في مقطع من قصيدته "الذي يأتي ولا يأتي"[xi]:

القمر الأعمى ببطن الحوت

وأنت في الغربة لا تحيا ولا تموت

نار المجوس انطفأت

فأوقد الفانوس

وأبحث عن الفراشة

لعلها تطير في هذا الظلام الأخضر المسحور.

إن الشاعر مغترب عن زمنه الضائع ومدينته الضائعة أيضا، ولكنه ملتزم ومؤمن بحتمية انتصار الثورات والإنسان وولادة نيسابور الجديدة، أما «التمرد الوجودي فهو يتعلق بمصير الإنسان الكلي ورفضه للحياة، وموقفه منها أنها لا تستحق أن تعاش في حين أن الشاعر الملتزم متعلق بالحياة.»[xii]

وهو التعلق الذي نقرأه في شعر أدونيس، رغم ماعاناه من قلق وغربة وكابد في توقه الدائم إلى المطلق، ومع

ذلك لم يشعر خوفا من الألم والأسى أو خشية منه، بل على العكس ربما رأى فيه وسيلة لعناق الأبدية، يقول:[xiii]

وقيل: كانت زوجة فقيرة

هنا وراء التلة الصغيرة

حبلى

وبين الليل والنهار

في الصمت

في التمزق المضيء

تنتظر الطفل الذي يجئ.

فأدونيس لا يبحث عن زمن ضائع، وإنما للزمن وجود ذاتي متميز عنده، فهو يبحث عن زمن لم يولد بعد يكون معه الأمل والتجدد والخصب (الطفل الذي يجيء)، وبالتالي الرؤية والوعي والتواصل مع الحياة من جديد.

خاتمة

هكذا نجد الشاعر العربي المعاصر يمزق من قصائده ثياب الأسى والألم والوجع ليخرج لنا حياة الغربة والجوع والإذلال من أجل الضمير الجمعي، وبنية الأسى لديه تتأسس على أفكار مختلفة تتوزع بين رفض الزمن اللامنطقي، وعلاقته بالعالم، وكذا علاقته بذاته، وتنبني هذه العلاقات في مجموعها على التجاوز والتنافر في الوقت نفسه، وعلى الانفصال لا الاتصال، ومع ذلك يحتشد الأمل بحركة الحياة رغم ثمالة الموت وطغيان الأسى، وسطوة الألم وتضافر الوقائع الهزائمية واحدة بعد أخرى في الوطن العربي.